لنتابع الآن نقدنا لجاك بيرك ٠

يعلن بيرك انتماءه الى العلوم الاجتماعية مع وفائه للتعارض القائم بين العلم والميتافيزيقا التي يظن انه تخلص من تاثيرها ٠ انه يطبق ذلك التعارض على الاسلام دون ان يشغل باله بمصير مثل هذا التعارض داخل الاسلام نفسه ٠ كيف تلقى الاسلام مثل هذه التفرقة بين العلم والميتافيزيقا ؟ كيف اول الاسلام في لغته الخاصة ، الانطولوجيا الاغريقية ؟

طالما اننا لم نستحضر مثل هذه التساؤلات ، فان مسالة العرب تظل تائهة ٠ الى اين اذن تقودنا مشاهد بيرك ؟

ان الاستشراق يلعب دوره بين حركتين للميتافيزيقا : حركة التقليد الغربي ، وحركة التقاليد الاسلامية ٠ الاسلام بصفته مأخوذا من عمق اللغة العربية ٠ ويعتمد بيرك في نصه على اشارة مزدوجة ٠ من جهة ، يطبق على العرب وعلى الاسلام اسهما نارية تجريبية ٠ وهي تجريبية تتحول ، في عدة مواضيع ، الى فولكلورية فارغة ، مثل هذه الاستعارة المزوقة : « في ساعات الصلاة ، يمتد من فوق المآذن ، صياح المؤذن على شكل زخارف (ارابسك) » (١٤) ٠

ومن جهة ثانية ، تغمر جوهرية روحانية مجموع كتاباته مضفية عليها مناخا مسيحيا خاصا (أوه ! صحيح انها مسيحية دنيوية) ٠ مناخ يلعب فيه المستشرق دور الكاهن ، او المسيح الابوي الذي يدل العرب على طريق « اصالة من نوع جديد » (ص ٢٤٢) ٠

ينصح جاك بيرك العرب قائلا : « كونوا انفسكم » ، والواقع انه ينصح « عربه » هو ٠ لكن ، من اي موقع يتكلم ؟ والى من يتكلم ؟ وفي اتجاه اي موتى/احياء ؟ من هم العرب الذين اخترعهم مسرة للنظر ؟ واذا كان مصير المستشرق هو ان يكون « متنقلا » محظوظا بين شواطىء اللسنيات وشواطىء الفكر ، واذا كان قدره دعاء فجريا ، فاي يوم مشرق تعدنا به كتابات واعمال جاك بيرك ؟

لنتبع خطاه في هذه المناقشة ، ولنتتبع هذه الطريقة التي تريد ان تكون متموجة الخطى ، انيقة و « في المستوى » ٠ لنتابع هذا التقليد الجامعي في لهوه المولع بالغرابية ٠٠ فلربما نفاجأ باننا اخذنا على غرة ، فنعاد الى قحتنا غير المالوفة ٠

منظورا اليه من هذه الوجهة المزدوجة (الهجائية والانطولوجية اللاهوتية) يخفي الاستشراق قوانين تركيبه حسب نقل مزدوج لاساسه الميتافيزيقي ٠ وسواء شاء ام ابى ، فان الاستشراق سيبقى منتميا الى تقليد عرقي ممركز على الذات لا يمكن اختزاله ، وذلك ما دامت المعرفة التي تسنده ، تندرج في حقل الميتافيزيقا ٠

الا اننا ، من جانب اخر ، نجد ان الاسلام لا يسهل مهمة المستشرقين ٠ ان الاسلام ، نتيجة لفعول المرآة ، قابل لقراءة تمت من قبل من خلال مسافة اخرى ٠ ذلك ان الها معينا لارسطو قد دخل في الاسلام قبل ظهوره ٠ ويبقى السؤال مطروحا لمعرفة ما اذا لم يكن اللاهوت الابراهيمي (مهما كانت صوره المختلفة) في اساسه ، ظلا للالهي الاغريقي ٠

مهما يكن فان الاستشراق محكوم عليه بان يستثمر الاخر عن طريق تحويل للاصل ،